بسم الله الرحمن الرحيم

منهج الحافظ ابن حجر في كتابه "فتح الباري"

إعداد

عبدالله محمد الحبر

١٤٢٥/١٤٢٦هـ

۞ أولاً : ترجمة مختصرة للحافظ ابن حجر (١)

اسمه : أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد بن حجر الكناني العسقلاني المصري الشافعي.

كنيته : أبو الفضل كناه بذلك أبوه.

لقبه : شهاب الدين.

مولده ونشأته : ولد في شعبان سنة (٧٧٣هـ) ، ونشأ يتيماً حيث مات أبوه وهو صغير ونشأ عند وصيه زكي الدين الخَرُّوبي ، وأكمل حفظ القرآن وهو ابن تسع سنين ، ثم اشتغل بطلب العلم قال السيوطي : " وعانى أولاً الأدب والشعر فبلغ فيه الغاية ، ثم طلب الحديث من سنة أربع وتسعين وسبعمائة فسمع الكثير ورحل ولازم شيخه الحافظ أبا الفضل العراقي وبرع في الحديث وتقدم في جميع فنونه" (٢)

شيوخه : اجتمع له من الشيوخ من يقل أن يجتمع مثلهم لغيره .

قال تلميذه السخاوي : واجتمع له من الشيوخ المشار إليهم ، والمعول في المشكلات عليهم ما لم يجتمع لأحد من أهل عصره ؛ لأن كل واحد منهم كان متبحراً في علمه ، ورأساً في فنه الذي اشتهر به لا يلحق . فالتنوخي في معرفة القراءات وعلو سنده فيها ، والعراقي في معرفة علوم الحديث ومتعلقاته ، والهيثمي في حفظ المتون واستحضارها ، والبلقيني في سعة الحفظ والاطلاع ، وابن الملقن في كثرة التصانيف ، والمجد الفيروزآبادي في حفظ اللغة واطلاعه عليها ، والغماري في معرفة العربية ومتعلقاتها ، وكذا المحب بن هشام كان حسن التصرف فيها لوفور ذكائه... " (٣)

---

(١) ترجم له تلميذه الحافظ السخاوي ترجمة مطولة في مؤلف خاص أسماه " الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر" ، وهو أجمع ما كتب في ترجمته ، ولم يخل كتاب من كتب التراجم التي صنفت في حياته أو بعد وفاته من ترجمة له ، وقد أفردت أخيراً في الحافظ دراسات خاصة منها كتاب " ابن حجر العسقلاني ودراسة مصنفاته ومنهجه في وموارده في الإصابة" وهي رسالة دكتوراه ل شاكر محمود عبد المنعم ، ومنها كتاب " الحافظ ابن حجر أمير المؤمنين في الحديث " لعبد الستار الشيخ.

(٢) طبقات الحفاظ ٥٥٢/١

(٣) الضوء اللامع ٣٧/٢-٣٨

تلاميذه : تتلمذ عليه كثير من العلماء من أبرزهم : الحافظ السخاوي ، وبرهان الدين البقاعي ، والتقي بن فهد المكي ، والكمال بن الهمام .

ثناء العلماء عليه : أطنب العلماء من الثناء على ابن حجر قال تلميذه السخاوي :" وقد كان – يعني ابن حجر – حرياً بوصفه بهذه اللفظة يعني شيخ الإسلام ... " ، وقال السيوطي :" شيخ الإسلام وإمام الحفاظ في زمانه وحافظ الديار المصرية بل حافظ الدنيا " (١)

وقال ابن فهد : لو حلفت بين الركن والمقام ، وحلفت أني ما رأت عيني مثله ، ولم تر عين من رآه مثله ، ولا رأت عيناه مثل نفسه لبررت " (٢)

وفاته : توفي – رحمه الله – آخر شهر ذي الحجة سنة (٨٥٢هـ)

---

(١) طبقات الحفاظ ١/٥٥٢

(٢) الجواهر والدرر للسخاوي

ثانياً : كتاب فتح الباري

وسأتكلم عن هذا الكتاب من خلال العناصر التالية:

- مميزات الكتاب
- مكانة الكتاب العلمية
- منهجه في كتابه
- مذهبه الفقهي وتأثيره في الشرح
- مصادره ، وطريقته في الاستفادة منها

- مميزات الكتاب

تميز فتح الباري عن غيره من شروح البخاري بميزات لا توجد في غيره أهمها مقدمته الفريدة التي أسماها "هدي الساري" وشهرتها وانفرادها بما اشتملت عليه من الفوائد الحديثية والنكات الأدبية ، والفرائد الفقهية ، تغني عن الوصف.

وهي مصنف بحد ذاته أمضى الحافظ في تصنيفها خمس سنوات وأكملها عام (٨١٣هـ) ، وقد ذكر ابن حجر غرضه منها فقال : " وأقدم بين يدي ذلك كله مقدمة في تبيين قواعده وتزيين فرائده جامعة وجيزة دون الإسهاب وفوق القصور سهلة المأخذ تفتح المستغلق وتذلل الصعاب وتشرح الصدور وينحصر القول فيها - إن شاء الله تعالى - في عشرة فصول:

الأول : في بيان السبب الباعث له على تصنيف هذا الكتاب.

الثاني : في بيان موضوعه والكشف عن مغزاه فيه والكلام على تحقيق شروطه وتقرير كونه من أصح الكتب المصنفة في الحديث النبوي ويلتحق به الكلام على تراجمه البديعة المنال المنيعة المثال التي انفرد بتدقيقه فيها عن نظرائه واشتهر بتحقيقه لها عن قرنائه.

الثالث : في بيان الحكمة في تقطيعه للحديث واختصاره وفائدة اعادته للحديث وتكراره.

الرابع : في بيان السبب في إيراده الأحاديث المعلقة والآثار الموقوفة مع أنها تباين أصل موضوع الكتاب وألحقت فيه سياق الأحاديث المرفوعة المعلقة والإشارة لمن وصلها على سبيل الاختصار

الخامس : في ضبط الغريب الواقع في متونه مرتباً له على حروف المعجم بألخص عبارة وأخلص إشارة لتسهل مراجعته ويخف تكراره.

السادس : في ضبط الأسماء المشكلة التي فيه وكذا الكنى والأنساب ...

السابع : في تعريف شيوخه الذين أهمل نسبهم إذا كانت يكثر اشتراكها كمحمد لا من يقل اشتراكه كمسدد ...

الثامن : في سياق الأحاديث التي انتقدها عليه حافظ عصره أبو الحسن الدارقطني وغيره من النقاد والجواب عنها حديثاً حديثاً ، وإيضاح أنه ليس فيها ما يخل بشرطه الذي حققناه.

التاسع : في سياق أسماء جميع من طعن فيه من رجاله على ترتيب الحروف والجواب عن ذلك الطعن بطريق الإنصاف والعدل والاعتذار عن المصنف في التخريج لبعضهم ممن يقوي جانب القدح فيه ...

العاشر : في سياق فهرسة كتابه المذكور باباً باباً وعدة ما في كل باب من الحديث ومنه تظهر عدة أحاديثه بالمكرر ... ، ثم أردفته بسياق أسماء الصحابة الذين اشتمل عليهم كتابه مرتبا لهم على الحروف وعد ما لكل واحد منهم عنده من الحديث ...، ثم ختمت هذه المقدمة بترجمة كاشفة عن خصائصه ومناقبه جامعة لمآثره ومناقبه ليكون ذكره واسطة عقد نظامها وسرة مسك ختامها" (١)

---

(١) هدي الساري ص ٣-٤

• مكانة الكتاب العلمية :

ليس في شروح البخاري ما يقارب شرح ابن حجر فضلاً أن يماثله ، بـل لـيس في شروح السنة ما يماثل هذا الشرح ولهذا قال السيوطي : " وصنف التصانيف التي عم النفع بها كشرح البخاري الذي لم يصنف أحد في الأولين ولا في الآخرين مثله "(١)

وقال ابن قاضي شهبة " ومصنفاته تزيد على المائة ، ومن أجلها شرحه للبخـاري لم يصنف مثله ، ولا على منواله "(٢) ، ونحو هذا قال أبو البركات الغزي ، وابن البرهـان الحلبي.

وفي "التحفة القادرية" أن الشيخ القصار كان يقول عن "فتح الباري" : " ما ألف في ملة الإسلام شرح على جميع المصنفات في علم الحديث مثل هذا الشرح " (٣)

ولقد سبق ابن حجر كثير من الشراح إلا أنهم لم يوفوا ما لصحيح البخاري من حـق ولهذا قال ابن خلدون " ولقد سمعت كثيراً من شيوخنا –رحمهم الله– يقولـون شـرح كتاب البخاري دين على الأمة ، يعنون أن أحداً من علماء الأمة لم يوف ما يجب له من الشرح بهذا الاعتبار"(٤)

قال السخاوي :" ولو وقف عليه – يعني فتح الباري– القائل فإن شرح البخاري إلى الآن دين على هذه الأمة لقرت عينه بالوفاء والاستيفاء" (٥)

ولما طلب من الشوكاني أن يشرح "صحيح البخاري" قال : " لاهجرة بعد الفتح" (٦)

---

(١) طبقات الحفاظ ٥٥٢/١

(٢) الجواهر ص٢٤٣

(٣) فهرس الفهارس ٢٣٨/١

(٤) مقدمة ابن خلدون ص٤٤٣

(٥) الجواهر والدرر ص ٢٤١

(٦) فهرس الفهارس ٢٣٨/١

* منهجه في كتابه

ذكر ابن حجر طريقته في الشرح ومنهجه فيه على سبيل الإجمال ، وسوف أسوق بمشيئة الله منهجه مبتدأً بما نص عليه هو في مقدمة شرحه " هدي الساري"[1] ، ثم أسوق بعض الملامح العامة لهذا الشرح مما لم ينص عليه

١) يذكر وجه المناسبة بين الباب والحديث إن كانت خفية .

٢) يستخرج ما يتعلق به غرض صحيح في ذلك الحديث من الفوائد المتنية والإسنادية من تتمات وزيادات وكشف غامض وتصريح مدلس بسماع ومتابعة سامع من شيخ اختلط قبل ذلك منتزعاً كل ذلك من أمهات المسانيد والجوامع والمستخرجات والأجزاء والفوائد

٣) اشترط الصحة أو الحسن فيما يورده في شرحه من الأحاديث

٤) يصل ما انقطع من معلقات الصحيح وموقوفاته

٥) يضبط ما يشكل من أسماء وأوصاف ، مع إيضاح معاني الألفاظ اللغوية والتنبيه على النكت البيانية ونحو ذلك .

٦) يورد ما استفاده من كلام الأئمة مما استنبطوه من ذلك الخبر من الأحكام الفقهية والمواعظ الزهدية والآداب المرعية مقتصراً على الراجح من ذلك متحريا للواضح دون المستغلق في تلك المسالك

٧) يعتني بالجمع بين ما ظاهره التعارض مع غيره ، كما يعتني بالتنصيص على المنسوخ بناسخة والعام بمخصصه والمطلق بمقيده والمجمل بمبينه والظاهر بمؤوله والإشارة إلى نكت من القواعد الأصولية ونبذ من فوائد العربية ونخب من الخلافات المذهبية.

٨) إن تكرر المتن في باب بعينه غير باب تقدم فإنه ينبه على حكمة التكرار من غير إعادة لشرحه إلا أن يتغاير لفظه أو معناه فينبه على الموضع المغاير خاصة

٩) إن تكرر الحديث في باب آخر فإنه يقتصر فيما بعد الأول على المناسبة شارحا لما لم يتقدم له ذكر في الموضع الأول منبهاً على الموضع الذي تقدم بسط القول فيه

---

(١) يراجع هدي الساري ص ٤-٥

١٠) أحياناً يؤخر شرح الحديث فلا يشرحه في موضعه الذي ساقه البخاري فيه أولاً وقد بين طريقته في ذلك فقال : فإن كانت الدلالة لا تظهر في الباب المقدم إلا على بعد غيرت هذا الاصطلاح بالاقتصار في الأول على المناسبة وفي الثاني على سياق الأساليب المتعاقبة".

١١) ذكر أنه راعى الاختصار في شرحه فقال "مراعياً في جميعها مصلحة الاختصار دون الهذر والإكثار "

١٢) اعتمد في شرحه على رواية أبي ذر الهروي وذكر سبب اختياره لها فقال : " فليقع الشروع في الشرح ، والاقتصار على أتقن الروايات عندنا ، وهي رواية أبي ذر عن مشايخه الثلاثة ؛ لضبطه لها وتمييزه لاختلاف سياقها ، مع التنبيه إلى ما يحتاج إليه مما يخالفها " (١)

١٣) اعتنى ببيان منهج البخاري في صحيحه ومن أمثلة ذلك:

- قال " وهو يقتضي أن أصل قصده أن لا يكرر ، فيحمل على أن كل ما وقع فيه من تكرار الأحاديث إنما هو حيث يكون هناك مغايرة إما في السند وإما في المتن حتى أنه لو أخرج الحديث في الموضعين عن شيخين حدثاه به عن مالك لا يكون عنده معاداً ولا مكرراً ، وكذا لو أخرجه في موضعين بسند واحد لكن اختصر من المتن شيئا ، أو أورده في موضع موصولاً وفي موضع معلقاً ، وهذه الطريق لم يخالفها إلا في مواضع يسيرة مع طول الكتاب إذا بعد ما بين البابين بعداً شديداً ... وهذا يدل على أنه لا يعيد حديثاً إلا لفائدة إسناديه أو متنية كما قدمته"(٢)
- قال : " وقد ظهر بالاستقراء من صنيع البخاري أنه إذا أورد الحديث عن غير واحد فإن اللفظ يكون للأخير والله اعلم"(٣)

---

(١) فتح الباري ٧/١

(٢) فتح الباري ٥١٥/٣

(٣) فتح الباري ٤٣٦/١

- قال : " ومن عادة البخاري إذا أطلق الرواية عن علي إنما يقصد به علـــي بـــن المديني " [١]

١٤) ينتصر للبخاري ، ويرد على من اعترض عليه مثال ذلك قال " قوله باب الصلاة إلى العترة ساق فيه حديث أبي جحيفة عن آدم عن شعبة عن عون وقـــد تقـــدم الكلام عليه أيضا ، واعترض عليه في هذه الترجمة بأن فيها تكراراً فإن العترة هي الحربة لكن قد قيل إن الحربة إنما يقال لها عترة إذا كانت قصيرة ففي ذلك جهـــة مغايرة " [٢] ، وينظر ٤٣٨/٧ ، ٥٨٦/١١

١٥) يعتني بفقه البخاري من خلال تراجم الصحيح أو ما يسوقه تحتـــها مـــن آثـــار وأحاديث مثال ذلك قال: " وقد جرت عادته أن دليل الحكم إذا كان محتملا لا يجزم بالحكم" [٣] ، وقال : " البخاري يحتج بشرع من قبلنا في كثير من المواضـــع في صحيحه " [٤] قال :" يستفاد منه أن البخاري يرى أن الصحابي إذا أضـــاف الفعل إلى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم يكون حكمه الرفع وهو الصحيح" [٥]

١٦) يختم كل باب من أبواب الصحيح بخاتمة يذكر فيها عدد أحاديثه المرفوعة وما في حكمها والموصول منها والمعلق ، وعدد المكرر ، وما وافقه مسلم على تخريجه وما انفرد به عن مسلم ، وعدد ما فيه من الآثار عن الصحابة فمن بعدهم

---

(١) فتح الباري ٤٣٨/٤

(٢) فتح الباري ٥٧٦/١

(٣) فتح الباري ٤٢٠/٩

(٤) فتح الباري ٤٨/١١

(٥) فتح الباري ٢٩٩/١

• مذهب المصنف الفقهي وأثره في الشرح

لا خلاف في كون الحافظ ابن حجر شافعي المذهب ، وكل من نسبه إلى مذهب من الذين ترجموا له نسبوه إلى مذهب الشافعي ، وهو يصرح بهذا في شرحه كما في قوله لما تكلم عن موقف المأموم إذا كان واحداً من إمامه : " وقد قال أصحابنا يستحب أن يقف المأموم دونه قليلاً " [1] وكما في قوله " وفي حديث مالك بن الحويرث عنده كبر ثم رفع يديه ، وفي المقارنة وتقديم الرفع على التكبير خلاف بين العلماء ، والمرجح عند أصحابنا المقارنة ، ولم أر من قال بتقديم التكبير على الرفع ، ويرجح الأول حديث وائل بن حجر عند أبي داود ..." [2]

ولهذا أمثلة كثيرة في " الفتح" ، وهو يعني هنا بقوله " أصحابنا " الشافعية.

لكن ابن حجر رحمه الله لم يكن جامداً على المذهب الشافعي ، بل إنه ينظر إلى غيره ممن خالفه من المذاهب ويقارن ويرجح ، وأحياناً بعد حكايته لاستدلال ذكره بعض الشافعية للمذهب يتعقبه ببيان ضعفه ، وربما رجح خلاف المشهور من المذهب ، وإن كان قليلاً ، ومن أمثلة ذلك : قال : " وأما احتجاج أصحابنا لذلك بقوله صلى الله عليه وسلم إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة فليس بجيد لأن حاصله النهى عن التلبس بصلاة غير التي أقيمت من غير تعرض لنية فرض أو نفل" [3] ، قال : " واستدل به على جواز إطالة القراءة ولو خرج الوقت وهو المصحح عند بعض أصحابنا وفيه نظر لأنه يعارضه عموم قوله في حديث أبي قتادة إنما التفريط أن يؤخر الصلاة حتى يدخل وقت الأخرى أخرجه مسلم " [4]

ومثال ترجيحه خلاف المشهور من مذهب الإمام الشافعي ترجيحه في صفة التيمم ما دل عليه حديث عمار في الصحيح أنه ضربة واحدة للوجه والكفين ، ورجح عدم إيجاب

---

(١) فتح الباري ٢/١٩٠

(٢) فتح الباري ٢/٢١٨

(٣) فتح الباري ٢/١٩٦

(٤) فتح الباري ٢/٢٠٠

مسح ما زاد على الكفين ، ورجح عدم إيجاب تقديم الوجه على الكفين ، ولم يوجب ضربتين ، وهذا كله خلاف المشهور من مذهب الشافعية.[١]

ومن ذلك أيضاً : مسألة عدد من تنعقد بهم الجمعة[٢] ، ومسألة الجهر بالقراءة في صلاة الكسوف[٣] .

• مصادره ، وطريقته في الاستفادة منها

من أكبر ما يميز هذه الموسوعة العلمية "فتح الباري" سعة اطلاع مصنفها ، وتنوع مصادره وموارده فيها ، فقد استفاد من مصنفات كثيرة في سائر الفنون ، منها ما صرح به ، ومنها ما أشار إليه دون تصريح باسمه ، ومنها ما أغفله ، وهي كثيرة جداً ، وقد أحصى أحد الباحثين ما صرح به الحافظ من هذه المصادر فألفاها اثني عشر وأربعمائة وألف مصنف [٤]

وأما طريقته في الاستفادة من هذه المصادر فإنه تارة ينقل منها ويصرح بذلك ، لكن ينبغي التنبه إلى أن الحافظ –رحمه الله – لا يتقيد بنص الكتاب الذي نقل منه ، بل يتصرف فيه دون إخلال بمراد صاحبه .

وأحياناً يبهم من نقل عنه فيقول : ذكر بعضهم ، ذكر بعض أصحابنا ، ونحوه .

وأحياناً ينقل من بعضهم دون إشارة إليه ، فينقل من العراقي في "طرح التثريب " ، ومن ابن الملقن في "الإعلام" ، ومن شراح الصحيح ، كالكرماني ، وغيره.

قلت: ولعل الحافظ يمر على هذه المصنفات قبل أن يكتب في المسألة ، فيستحضر ما فيها لحدة ذكائه وسيلان ذهنه ، ثم يكتب بعد ذلك ما يفتح الله عليه فيها ، فيسوق شيئاً مما علق بذهنه دون أن يقصد النقل ، والله أعلم.

---

(١) ينظر فتح الباري ١/٤٤١-٤٤٢-٤٤٣

(٢) ينظر فتح الباري ٢/٤٢٣

(٣) ينظر فتح الباري ٢/٥٥٠

(٤) هو الشيخ مشهور حسن سلمان في كتابه " معجم المصنفات الواردة في فتح الباري"